الفصل العاشر

الأعشى

١

قبيلته

ينتسب الأعشى إلى قبيلة بكر بن وائل الكبيرة التى كانت تمتد فروعها وبطونها فى شرقى الجزيرة من وادى الفرات إلى اليمامة . ومن أهم هذه الفروع والبطون شيبان ويَشْكر وجُشَم وعِجْل، ثم حنيفة وقيس بن ثعلبة وكانتا تنزلان فى اليمامة، وتتشعب قيس شعباً أهمها مالك بن ضُبَيْعة ومن عشائرهم بنو عَبْدان وبنو كعب، وربيعة ابن ضبيعة ومن بيوتاتهم بنو جَحْدر ، وسعد بن ضبيعة وإليهم ينتمى الأعشى .

وتاريخ عشيرة بنى سعد بن ضبيعة فى العصر الجاهلى يندمج فى تاريخ قبيلتها الكبيرة، فقد وقفت معها فى حروب البسوس التى ظلت أربعين عاماً ، كما وقفت معها فى يوم الكُلاب ، ودخلت معها بعد هذا اليوم فيما دخلت فيه من الولاء للمناذرة وطالما نصرتهم فى حروبهم مع الغساسنة . ولما طلب كسرى أبرويز النعمانَ بن المنذر احتمى هو وأسرته ببنى شيبان إحدى قبائل بكر وخلّف عند سيدهم هانئ بن قبيصة الشيبانى أولاده وسلاحه الذى يقال إنه بلغ نحو ألف درع . وقتل كسرى النعمان كما مرّ فى غير هذا الموضع وولىّ على الحيرة إياس بن قبيصة الطائى ، فثارت شيبان وقبائل بكر ضده وأخذت جموعهما تغير على سواد العراق ، فاضطر كسرى أن ينازلها ، ودارت على جيوشه الدوائر فى يوم ذى قار المشهور الذى انتصر فيه العرب على الفرس ، وقد اختلف المؤرخون فى توقيت تاريخه[1] .

ولم تشترك قيس بن ثعلبة فى هذه الحروب وحدها ، فقد أسهمت مع بنى حنيفة

---

(١) انظر فى يوم ذى قار الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/١٣٢ والطبرى (طبعة دى غويه) ١/١٠١٥ ، ١/١٠٢٨ وما بعدها ، وابن الأثير ١/٢٩٠ والعقد الفريد ٦/١١١ . وراجع معجم ما استعجم للبكرى ومعجم البلدان لياقوت فى « ذى قار » .

وغيرها من البكريين فى حروب ضد تميم وغيرها من القبائل . وقد تقع حروب ومناوشات داخلية بين عشائرها ، مثلها مثل بقية العشائر فى الجاهلية إذ كانت كثيراً ما تنشب بينها خلافات تؤدى إلى بعض الدماء . ويظهر أنها على الرغم من استقرارها فى اليمامة وسكناها بعض القرى مثل « منفوحة » كانت تنزع إلى حياة البداوة وما يتصل بها من رعى الإبل والغنم ، ولعل ذلك ما جعل الأعشى يهجو إياداً فى بعض شعره بأنها تعتمد على الزراعة يقول[١] :

لسنا كمن جعلتْ إيادٌ دارها   تَكْرِيتَ تنظر حَبَّها أن يُحْصَدَا
جعــل الإلهُ طعامنا فى مالنا   رزقاً تضمَّنه لنا لن يَنْفَدَا[٢]
مثلَ الهضاب جِزارةً لسيوفنا   فإذا تُرَاع فإنها لن تُطْرَدا[٣]
ضَمِنتْ لنا أعجازُهن قُدورنا   وضُروعُهنَّ لنا الصَّريحَ الأَجْرَدا[٤]

وواضح أنه يصرِّح بأن إياد تعتمد على الزراعة والحصاد ، أما هم فما لُهم الإبلُ التى لا تنفد ، وهى إبل ضخمة كالهضاب ، يعقرونها لضيوفهم ، ولا يلم بها من يروعها أو يغير عليها خوفاً من بَسالتهم ، وهى تملأ قدورهم بلحمها وبيوتهم بألبانها .

وعلى العكس كان أبناء عمومتهم من بنى حنيفة أكثر استقراراً ، وقد اتخذوا الحِجْر قصبةً لهم ، وكان سيدهم فى أواخر العصر الجاهلى هَوْذَة بن على ، وكان يحمى القوافل الفارسية فى طريقها إلى اليمن ، ولعله من أجل ذلك وقف بعيداً بقبيلته عن يوم ذى قار ، فلم تشترك فيها . وأغلب الظن أن هذه القبيلة لم تعتمد على الرعى وحده شأن قبيلة الأعشى ، بل كانت تعتمد أيضاً على الزراعة ، فكانت نصف حضرية . وقد شاعت فيها النصرانية ، أما قيس بن ثعلبة فظلت فى جملتها وثنية تعبد الأصنام . وليس هذا كله ما بينهما من خلاف ، فبينما حنيفة لا يُعْرَفُ

(١) ديوان الأعشى طبعة جاير . القصيدة رقم ٣٤ ، الأبيات : ٣٣ وما بعده .
(٢) المال هنا : الإبل .
(٣) جزارة : مصدر جزره أى ذبحه ومنه يسمى البعير جزوراً .
(٤) الصريح : اللبن الخالص . الأجرد : الصافى .

لها شاعر مذكور فى الجاهلية[١] إذا قيس كثيرة الشعر والشعراء ، وقد يكون ذلك بسبب بداوة قيس وكثرة الحروب التى عانتها ، يقول ابن سلام : « وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التى تكون بين الأحياء . والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذى قلّل شعر عُمان[٢] » ونقول أيضاً إنه الذى قلل شعر حنيفة فى اليمامة .

أما قيس بن ثعلبة فقد كانت كثيرة الحروب ، فكانت تغير ويُغار عليها ، وفى أثناء ذلك ينشد لها شعراؤها القصائد والأناشيد الحمسّية ، فنما الشعر فيها وازدهر ، وقد اشتهر فيها غير شاعر من مثل المرقّش الأكبر والمرقش الأصغر والمتلمّس وابن أخته طرفة والمسيّب بن عَلَس . وقد أنشدنا فى غير هذا الموضع قطعة طرفة فى المعلقة التى يصور فيها فتوته وأنه ينفق حياته فى الكرم والحرب والنساء والخمر . ونجد هذه الروح فى شعر المرقشين ، كما نجد عندهما غزلا خفيفًا رقيقًا ، ولكل منهما قصة عشق مأثورة .

٢

حياته

عاش الأعشى فى أواخر العصر الجاهلى ، وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأته ، وكل ما يقوله الرواة أنه وُلد بمنفوحة فى اليمامة وأن أباه كان يلقّب بقتيل الجوع « لأنه دخل غاراً يستظلّ فيه من الحرّ ، فوقعت صخرة عظيمة من الجبل ، فسدّت فم الغار ، فمات فيه جوعاً ، وفى ذلك يقول جُهْنّام يهجوه ، وكانا يتهاجيان :

أبوك قَتيلُ الجوع قَيْسُ بن جَنْدَلٍ وخالك عَبْدٌ من خُماعةَ راضعُ[٣]

وخُماعة — فيما يظهر — جدٌّ بعيد لأمه ، وهى أخت المسيّب بن عَلَس ، وعنه حَمل الشعرَ الأعشى ، إذ كان راويته ، ولا شك فى أنه روى لغيره من شعراء قبيلته ، فهو امتداد لهم جميعاً .

---

(١) ابن سلام ص ٢٣٤ .
(٢) ابن سلام ص ٢١٧ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩/١٠٨ .

واسم الأعشى ميمون ، وإنما سمى الأعشى لضعف بصره ، ومن أجل ذلك كان يكنى بأبى بصير[١] . وإذا كنا لا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته فإنه يتبين لنا من أخباره ومن اسمه « صنَّاجة[٢] العرب » أنه انتقل بالشعر الجاهلى نقلة ، فإن كلمة صنَّاجة تعنى أنه كان يتغنى بشعره ، ويبالغون فى ذلك حتى يجعلوا كسرى يستمع لبعض غنائه فيه[٣] ! !

وتدل أخباره وأشعاره على أنه كان كثير التنقل والأسفار البعيدة فى أنحاء الجزيرة يمدح سادتها وأشرافها ، وفى ديوانه مديح للأسود بن المنذر وأخيه النعمان وإياس بن قبيصة الطائى والى الحيرة من بعده ، ويظهر أنه كان يقيم بها كثيراً . وفيه أيضاً مديح لقيس بن معديكرب الكندى ولسلامة ذى فائش أحد أمراء اليمن ولبنى عبد المَدَان بن الديّان سادة نجران ولهَوْذَة بن على سيد بنى حنيفة . وكان يفد على سوق عكاظ ، ويمدح من يمرّ به فى طريقه إليها من شيوخ العرب وأشرافهم[٤] .

ولا يكتفى الرواة بما يدل عليه شعره من الرحلة إلى الحيرة واليمن وديار كندة فى حضرموت ونَجْران وعكاظ بل يذهبون به إلى الفرس وعُمان وبلاد الشام متغلغلا فيها إلى حمص وأورشليم (بيت المقدس) ويجتازون به البحر إلى نجاشى الحبشة ، ويُجْرون على لسانه شعراً يتحدث فيه عن هذه الرحلات البعيدة ، فيقول[٥] :

وقد طُفْتُ للمــال آفاقَه ... عُمــانَ فَحِمصَ فأوريشَلِمْ
أتيتُ النجاشىَّ فى أرضِهِ ... وأرضَ النَّبيط وأرضَ العجمْ

وأكبر الظن أنه لم يصنع شيئاً من ذلك وأنه إنما اقتصر فى أسفاره ورحلاته على أطراف اليمن ونجد والحيرة يمدح شيوخ العرب وسادتهم . ووقع — كما يقول الرواة — فى بعض رحلاته بديار بنى عامر ومعه هداياه من بعض ممدوحيه ، فخشى على نفسه وعلى هداياه ، فاستجار بعلقمة بن عُلاثة ، فقال له قد أجرتك ، فقال له الأعشى من الجن والإنس ؟ قال : نعم ، قال الأعشى : ومن الموت ،

---

(١) ذهب ابن قتيبة إلى أنه كان أعمى . انظر الشعر والشعراء (طبع دار المعارف) ١ / ٢١٢ .
(٢) أغانى ٩ / ١٠٩ .
(٣) أغانى ٩ / ١١٥ والشعر والشعراء ١ / ٢١٤ .
(٤) أغانى ٩ / ١١٣ وما بعدها .
(٥) ديوانه القصيدة رقم ٤ وقارن بالقصيدة رقم ٦٣ .

فقال : لا . وتمضى القصة فتذكر أن علقمة كان قد اختلف مع ابن عمه عامر ابن الطُّفَيْل على سيادة القبيلة ، وتنافرا منافرة حادة ، اشترك فيها كثير من الشعراء ، فكان مع علقمة مروان بن سُراقة والحطيئة ومع عامر لبيد الشاعر المشهور . ولما لم يُجِرْ علقمة الأعشى من الموت أتى عامر بن الطفيل فقال له : أجِرْنى قال : قد أجرتك . قال : من الجن والإنس ؟ قال : نعم . قال : ومن الموت قال : نعم . قال : وكيف تجيرنى من الموت ؟ قال : إن مت وأنت فى جوارى بعثت إلى أهلك الدية ، فقال : الآن علمت أنك قد أجرتنى من الموت . فمدح عامراً وهجا علقمة[1] .

والأعشى فى شعره لا يعيش لمديح السادة والأشراف وأخذ نوالهم فحسب ، بل هو يعيش أيضاً لقبيلته ومنازعاتها الكثيرة مع بكر ضد الفرس ، ففى ديوانه مطولة يهددهم فيها ويتوعدهم كما يتوعد من يقف معهم من العرب مثل إياد[2] ، وهو يعيش كذلك فى منازعات قبيلته مع بنى شيبان ، فيتعرض بالوعيد والتهديد ليزيد بن مُسْهِرٍ الشيبانى ، على نحو ما تصور ذلك معلقته . فإذا حدثت منازعات صغرى بين عشيرته وأبناء عمومتهم من عشائر قيس بن ثعلبة ناصرها ذاكراً ما بينهم وبينها من أواصر الرحم ، على نحو ما نرى فى قصائده التى وجهها إلى بنى جَحْدر وبنى عَبْدان . وقد اصطدم عند الأخيرين بشاعرهم جُهُنَّام ، فتهاجيا طويلا .

ويقال إنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم وانتصاراته وانتشار دعوته رغب فى الوفود عليه ومديحه ، وعلمت قريش بذلك فتعرضت له تمنعه ، وكان مما قاله له أبو سفيان بن حَرْب : إنه ينهاك عن خلال ويحرِّمها عليك ، وكُلُّها بك رافق ولك موافق ، قال : وما هنّ ؟ فقال أبو سفيان : الزنا والقمار والرِّبا والخمر . فعدل عن وجهته ، وأهدته قريش مائة من الإبل ، فأخذها وانطلق إلى بلده معرضاً عن الرسول ودعوته ، فلما كان بقاع منفوحةَ رمى به بعيره ، فقتله[3] سنة ٦٢٩ للميلاد .

وهذه الخلال التى ذكرها أبو سفيان والتى جعلته يصدّ عن لقاء الرسول الكريم تدل على أنه كان وثنيًّا مغرقاً فى وثنيته ، وفى شعره نفسه ما يصوِّر معالم هذه الوثنية ،

---

(١) انظر فى هذه المنافرة وصلة الأعشى بها الأغانى (طبعة الساسى) ١٥/٥٥ وديوان الأعشى ص ١٦٥ .

(٢) الديوان ، القصيدة رقم ٣٤ .

(٣) أغانى ٩/١٢٥ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٢١٢ .

إذ نراه كثير الحديث عن القيان مثل هُرَيْرة وقُتَيْلة وجُبَيْرة، بل إنه ليتحدث عن البغايا اللائى يبعن أعراضهن(١) ، ويقرنه ابن سلام فى هذا الصدد بامرئ القيس فيقول : «وكان من الشعراء من يتألّه فى جاهليته ويتعفف فى شعره ولا يستهر بالفواحش . . ومنهم من كان يتعهّر ولا يبقى على نفسه ولا يتستر ، منهم امرؤ القيس ومنهم الأعشى(٢)» . وقد تمدح فى شعره كثيراً بالقمار كقوله مفتخراً بعشيرته(٣) :

من شبابٍ تراهمُ غيرَ مِيلٍ وكهولاً مَراجِحاً أحْلاما(٤)
ولقد تُصْلَقُ القِدَاحُ على النِّيب إذا كان يَسْرُهنَّ غَرامـا(٥)

فهم يضربون قداح الميسر على النوق الضخمة التى يتأبى غيرهم أن يضربها عليها اعتزازاً بها . أما الخمر فهو أكبر شاعر تغنى بها فى الجاهلية .

وطبيعى لمن تكون حياته على هذا النحو من المجون والإثم فيه أن يكون وثنيًّا متعمقاً فى وثنيته وأن لا يعتنق الإسلام ولا غير الإسلام من الأديان السماوية ، وقد زعم لويس شيخو أنه كان نصرانيًّا ، وشاركه فى هذا الزعم بعض المستشرقين مستدلين على ذلك بأنه كان يمدح أساقفة نجران ويتصل بالبيئات المسيحية فى الحيرة وبمثل قوله فى القصيدة رقم أربع وثلاثين :

رَبِّى كريمٌ لايكدِّر نعمةً وإذا يناشَدُ بالمهارق أنْشَدَا

والمهارق هنا الصحف الدينية . فكأنه يعترف بأنه نصرانى ، ترتّل لربه الأناشيد الكنسية ، غير أن هذا ليس حتماً ، فقد تكون لدى الوثنيين من الجاهليين مهارق كانوا يتلون فيها بعض أدعيتهم ، وقد يكون البيت دخيلا على القصيدة ، وسنعرف بعد قليل أن راوى ديوانه كان مسيحيًّا ، وأغلب الظن أنه هو الذى أدخل هذا البيت فى القصيدة ، كما أدخل فى قصيدة أخرى قَسَمه بالمسيح فى قوله(٦) :

---

(١) الديوان ، القصيدة رقم ٢٢ .
(٢) ابن سلام ص ٣٤ ويستهر فى الفواحش : يتبجح بذكرها ويفصح عما حقه أن يكتم .
(٣) الديوان ، القصيدة رقم ٣٨ .
(٤) ميل : جمع أميل وهو الجبان . مراجحاً : راجحى العقول .
(٥) تصلق: تضرب. النيب : الإبل الكبيرة. اليسر : القمار.
(٦) انظر الديوان ، القصيدة رقم ٢٣ البيت ١٦ .

وإنى وربِّ الساجدين عَشِيَّةً وما صَكَّ ناقوسَ النصارى أَبِيلُها[١]

وقد جعله فى قصيدة ثالثة يقسم براهب الدُّلجِّ ، بل بثوبه[٢]. وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن القصيدتين جميعاً موضوعتان فقد كان الأعشى وثنيًّا غالياً فى وثنيته ، كما تدل على ذلك خلاله التى وصفناها فى شعره ، وأيضاً أقسامه الوثنية التى رواها نفس هذا الراوى المسيحى ، إذ نراه يقسم بالكواكب والنجوم[٣] ، كما يقسم بالكعبة التى يحج إليها العرب وبما يهدون إليها من القرابين فى مثل قوله[٤] :

إنى لعمرُ الذى خطَّت مَناسِمُها تَخْدِى وسِيق إليه البَاقِرُ الغُيُـلُ[٥]

والحق أنه لم يكن نصرانيًّا ، إنما كان وثنيًّا على دين آبائه ، وقد احتفظ فى وثنيته بكل ما كان فيها من إثم وفجور .

٣

ديوانه

للأعشى ديوان كبير نشره جاير فى لندن[٦] سنة ١٩٢٨ وقد اعتمد فى نشره على مخطوطة فى الإسكوريال برواية ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ للهجرة ثم مخطوطة دار الكتب المصرية ونسختين نُقلتا عنها فى استراسبورج وزاخو ، ومخطوطة فى باريس وأخرى فى ليدن . وأضاف إلى الديوان ملحقين بما وجده من شعر الأعشى فى كتب الأدب وما وجده من أشعار لمن لقّبوا بالأعشى وهم كثيرون .

وكان اعتماده الأساسى على مخطوطة الإسكوريال ، لأنها برواية ثعلب ، وعلى الرغم من أنها تنقص أوراقاً من نهايتها تحتفظ للأعشى بسبع وسبعين قصيدة ومقطوعة . وقد أضاف إليها خمس قصائد من المخطوطات الخمس الأخرى، وجميعها تتفق فى رواية خمس عشرة قصيدة له . كما تتفق فى أنها مجهولة النسب . ولذلك لا يمكن الاعتماد

---

(١) صك : ضرب . الأبيل : الراهب .
(٢) القصيدة رقم ١٥ البيت ٤٤ .
(٣) القصيدة رقم ٢٧ البيت ١٨ .
(٤) القصيدة رقم ٦ البيت ٦٢ .
(٥) خطت : شقت التراب . المناسم : جمع منسم وهو طرف الخف . تخدى : تسرع فى السير مع اضطراب . الباقر : اسم جمع للبقر . الغيل : جمع غيول وهو الكثير .
(٦) شرح محمد حسين هذا الديوان ونشره بمكتبة الآداب بالقاهرة سنة ١٩٥٠ .

على هذه المخطوطات وأغلب الظن أنها مختارات جُمعت من نسخة ثعلب ، وليس رواية مقابلة لها . وقد صورت دار الكتب المصرية مخطوطة من المكتبة المتوكلية اليمنية بها ست وأربعون قصيدة ومقطوعة للأعشى ، ويفجؤنا كاتبها فى فاتحتها بأن هذا كتاب فيه من شعر الأعشى ، فهى لا تتضمن ديوانه إنما تتضمن مختارات منه ، وهى مختارات تدل على أنها جُمعت من نفس الرواية الكوفية ، وإن كنا نجد فيها قصائد غير مثبتة فى رواية ثعلب ، ولكن هذا لا يقوم دليلا على أنها لم تشتق من روايته ، فروايته التى نشرها جاير كما قدمنا غير كاملة ، إذ تنقص بعض أوراق . ومعنى ذلك أننا نفتقد فى شعر الأعشى الرواية البصرية ، فيما عدا القصيدتين رقم ٦ ، ١١ فقد نصّ شارح الديوان على أن أبا عبيدة قرأ الأولى على أبى عمرو بن العلاء وأن الأصمعى سمع أبا عمرو ينشد الثانية حفظاً ، ونصَّ الشارح أيضاً على أن القصائد ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٦ برواية أبى عمرو ، وظن جاير — كما ذكر فى مقدمته — أنه أبو عمرو بن العلاء ، وليس بصحيح إنما هو أبو عمرو الشيبانى ، فهو الذى كانت تُرْوَى عنه الدواوين ، وهو راوية كوفى ينقل عنه السكرى وثعلب وأضرابهما من رواة الدواوين . على أن الشارح نصّ فى القصائد ١ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ أنها من رواية أبى عبيدة البصرى ، وإن كنا نلاحظ أن القدماء شكوا فى القصيدة رقم ٦٠ وقالوا إنها لابن دأب[1] . على كل حال ليس بين أيدينا رواية بصرية كاملة للديوان ، إنما بين أيدينا رواية كوفية فيها إشارات إلى بعض ما تضمنته الرواية البصرية .

فإذا لاحظنا أن الرواية الكوفية للشعر الجاهلى غير دقيقة وأنها تتزيد فيه كما لاحظنا سابقاً فى دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير كان من الواجب ألا نقبل روايتها لديوان الأعشى دون احتياط واحتراس شديد ، وقد تصادف أن راويته الذى حمله عنه وأذاعه فى الناس كان نصرانيًّا معمَّراً هو يحيى[2] أو يونس بن متى وأن هذا الراوى من الممكن أن يكون قد عبث بالديوان فأدخل فيه ما ليس منه ، ليزيد بعض المعانى المسيحية ، وقد رُوِىَ عنه أنه كان يقول : «كان الأعشى قَدَرِيًّا إذ يقول :

استأْثَرَ اللهُ بالوفاء وبالـ ... ـعَدْلِ وولَّى الملامةَ الرجُلا

---

(١) الديوان ص ٢٠٧ . (٢) الأغانى ٩ / ١١٢ ومصادر الشعر الجاهلى ص ٢٣٨ .

فسأله سائل : من أين أخذ الأعشى قوله ومذهبه فأجاب : « من قِبَل العِباديين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشترى منهم الخمر ، فلقّنوه ذلك[١] » . ويبعد أن يكون الأعشى حقًّا قد تغلغل نظره كل هذا التغلغل ، فإذا هو يقول بالقدر وأن الإنسان حُرٌّ فى تصرفاته ، ولا يكتفى بذلك ، بل يقول بالعدل على الله كما تقول المعتزلة ، والمعقول أن يكون يحيى هو الذى وضع البيت ، بل لقد شك ابن قتيبة فى القصيدة جميعها ، وقال بعد أن روى طائفة من أبياتها هذا شعر منحول[٢] . وينبغى أن نشك كما شك ابن قتيبة فى قصائد الأعشى الأخرى التى تصور أفكاراً مسيحية أو أفكاراً إسلامية ، أما الأفكار المسيحية فلأن راويه الذى نشره نصرانى ، وأما الثانية فلأنها معان جديدة لم تعرفها الجاهلية ، لا هى ولا كل ما يتصل بها من ألفاظ القرآن وأساليبه . ويصور ذلك تصويراً واضحاً قصيدته رقم ١٧ التى قالوا إنه مدح بها الرسول صلوات الله عليه ، مع أنه — كما قدمنا — لم يلقه وصدّته قريش عن لقائه ، وبمجرد أن نقرأ القصيدة وقوله فيها :

إذا أنت لم تَرْحَلْ بزادٍ من التُّقَى ... ولاقيتَ بعد الموت من قد تزوّدا
نَدِمتَ على أن لا تكون كمثلِهِ ... وأنك لم تُرْصِدْ لما كان أَرْصَدَا[٣]
فإياك والميْتَاتِ لا تأكلنَّها ... ولا تأخذَنْ سهماً حديدًا لِتَفْصِدَا[٤]
وذا النُّصُبَ المنصوبَ لا تَنْسُكَنَّه ... ولا تَعْبُدِ الأوثانَ والله فاعبُدَا[٥]
وصَلِّ على حينِ العشيَّاتِ والضُّحَى ... ولا تحمَدِ الشيطانَ والله فاحْمَدَا
ولا السائلَ المحرومَ لا تتركَنَّهُ ... لعاقبةٍ ولا الأسيرَ المقيَّدا
ولا تَسْخَرَنْ من بائسٍ ذى ضرارةٍ ... ولا تحسبنَّ المرء يوماً مخلَّدَا[٦]
ولا تقربنَّ جارةً إنَّ سِرَّها ... عليك حرامٌ فانكِحَنْ أوتأبَّدَا[٧]

(١) الأغانى ٩/١١٣ وما بعدها .
(٢) الشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ص ١٤ .
(٣) أرصد : أعد وهيأ .
(٤) يشير إلى أنه لابد من الذبح كما تقضى تعاليم الإسلام .
(٥) النصب : حجارة كانوا ينصبونها حول الكعبة ويقدسونها أو هى الأوثان .
(٦) الضرارة : ذهاب البصر أو النقص فى الأنفس والأموال .
(٧) السر هنا : البضع . النكاح : الزواج . التأبد : البعد عن النساء والتعزب .

نعرف توًّا أنها موضوعة ، لا لأنه فيها يدعو إلى تعاليم إسلامية فحسب ، بل لأنه ينظم فيها آيات قرآنية من مثل قوله تعالى : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وقد نظم فى البيتين الثالث والرابع قوله تعالى : (حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به) أما فى البيت الخامس فنظم قوله تبارك وتعالى : (واذكر ربك كثيراً وسَبِّحْ بالعشى والإبكار) . ونظم فى البيت السادس قوله جَلَّ وعز : (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . وفى البيت السابع نظم قوله جَلَّ ذكره : (يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم) أما البيت الثامن فنظم فيه مثل قوله تعالى : (ولا تَقْرَبوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) وقوله : (ولْيَسْتَعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يُغْنيَهم الله من فضله) .

وواضح من هذا كله أن القصيدة منتحلة ، وهى لا تتفق فى شىء ونفسية الأعشى ، وما كان ليسمع القرآن ويؤمن بتعاليمه على هذا النحو ، ثم ينصرف عن رسوله الكريم وهديه . ونحن لا نشك فقط فى هذه القصيدة ، بل نشك كذلك فى القصائد الأخرى التى تردِّدُ معانى الإسلام ومثاليته الخلقية أو تردد بعض المعانى المسيحية . وبهذا القياس نتهم قصيدته رقم ٥ لقوله فيها يمدح قيس بن معديكرب الكندى :

وما أَيْبُلِيٌّ على هَيْكَلٍ بناه وصلَّبَ فيه وصارا (١)
يُراوِحُ من صَلَواتِ المليـ ـك طورًا سجودًا وطورًا جُؤَارا (٢)
بأَعظم منه تُقًى فى الحساب إذا النَّسَماتُ نَفَضْنَ الغُبارا

وواضح أنه يصفه بالتقوى وأنه يراقب ربه ، ويقول إن الراهب الذى يصلِّب له فى هيكله ويصلى له ساجداً ويتضرع ليس أعظم منه تقوى وخشية ، حين تهب الريح اللينة نافضة للغبار . وقد نظم منتحلها قوله تعالى : « فإنه يعلم السرَّ وأخفى » فقال :

عطاءَ الإلهِ فإن الإلـ ـه يسمع فى الغامضاتِ السِّرارا

(١) أيبلى : راهب . الهيكل : موضع فى صدر الكنيسة توضع فيه القرابين . صلب : صور الصليب بيده . صار : سكن .

(٢) الجؤار : التضرع بالدعاء .

ومثلها القصيدة رقم ١٥ التى أنشد فيها منتحلها قَسَمه بثوبى راهب اللج فقال :

وإنى وثَوْبَىْ راهبِ اللُّجِّ والتى بناها قُصَىٌّ والمُضاضُ بن جُرْهُمِ[1]

وحقًّا أنه أضاف إلى ثياب الراهب القسم بالكعبة ، ولكن مما يزيد الشبهة فى القصيدة أننا نجد فيها هذا البيت ، يهجو به خصمه :

وما جعل الرحمنُ بيتك فى العُلا بأَجْيادِ غربىِّ الفِناءِ المحرَّمِ[2]

ولم تشع كلمة الرحمن بين الشعراء إلا فى الإسلام أخذاً من قوله تعالى : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وقد دارت فى القرآن الكريم . ونقف نفس الموقف من القصيدة رقم ٢٣ للبيت الذى مر بنا والذى يقسم فيه بالمسيح وضرب الراهب للناقوس ، ومما لا شك فيه أن قوله فى قصيدة النعمان رقم ٢٨ :

فلا تحسبنِّى كافرًا لك نعمةً علىَّ شهيدٌ شاهدُ اللهِ فاشْهَدِ

مما يضعفها ، لأنه يلخص فكرة الملائكة الشاهدين المعروفة فى الإسلام . وقد شك ابن قتيبة فى القصيدة رقم ٣٥ وبها بيت القدر الذى أنشده يحيى بن متى فيما أسلفنا . وتكاد تكون القصيدة رقم ٦٦ فى كثير من أبياتها نظماً لمواد قرآنية على هذه الشاكلة :

وربَّك لا تشركْ به إن شِرْكَهُ يَحُطُّ من الخيرات تلك البواقيا

بل اللهَ فاعبدْ لا شريك لوجهه يكنْ لك فيما تكدحُ اليوم راعيا

وقد مضى واضعها يدعو إلى تقوى الله وصلة الرحم ورَدِّ الأمانات إلى أهلها والتعفف عن الجارة ، ويقول محذراً من معصية الله : « فإنك لا تخفى على الله خافياً » ويقول أيضاً : « كفى بكلام الله عن ذاك ناهياً ». فلاشك فى أن هذه القصيدة إسلامية . على أنها تلفتنا إلى شىء مهم ، وهو أن الأعشى أضيفت إليه أشعار تذهب مذهب العظة والاعتبار ، ولا نرتاب فى أن يحيى بن متى لعب فى ذلك

---

(١) اللج : غدير عند دير هند . ويريد بثوبيه أعماله الصالحة. ومعروف أن أمر الكعبة كان إلى جرهم ثم صار إلى قصى .

(٢) أجياد : موضع فى بطحاء مكة ، والفناء المحرم : حرم مكة .

دوراً كبيراً ، وقد تبعه القُصَّاص والوعاظ المسلمون يزيدون فى النسيج خيوطاً ، فإذا الأعشى كأنه واعظ من وعاظ الكوفة ، يتحدث إلى الناس حديث عظة عن الدهر وتقلباته والموت وما طوى من الملوك وأسباب ترفهم ونعيمهم ، وكيف يأتى على الناس ، فالكل إلى فناء ، ولا يبقى سوى وجه ربك ذى الجلال والإكرام . ولا يبدو ذلك فى قصيدة من ديوانه أو قصيدتين ، بل إنه يجرى فى قصائد كثيرة ، واقرأ قصيدته ذات الرقم ٢ فإنك ستراه يستهلها بالحديث عن حياة الإنسان وما يلقى فيها من العناء والشقاء بالموت وما ينزل به من الأمراض والأحزان ، وكيف أن أحداً لا يستطيع الفرار من المنية ، ويسترسل فى الحديث عمن مات من الملوك الأولين . وفجأة يخرج إلى الحديث عن لذاته . ولعل من الطريف أن القدماء أنكروا القصيدة[1] . ومثلها القصيدة رقم ٤ وفيها يتحدث عن طوافه فى البلاد ، وقد أنشدنا منها فيما مر البيتين اللذين يذكر فيهما أنه زار أوريشليم والنجاشى فى أرضه ، ولكن ليس هذا هو الذى نقف عنده فحسب ، فقد مضى يتحدث عن قصة حصن الحضْر وتخريب سابور له بجنوده ، ويُنْهِى قصته تلك بقوله

وفى ذاك للمُؤْتسِى أُسـوةٌ ومَأْرِبُ قَفَّى عليها العَرِمْ[2]

ويمضى فى هذه القصة قصة سد مأرب وخرابه وتشتت حمير فى البلاد ، متخذاً من ذلك عظة جديدة . وعلى هذا المثال قصيدته رقم ١٣ وفيها يحدثنا عن زرقاء اليمامة وكيف عصاها أهلها ولم يأتمروا بأمرها حين خوفتهم جيوشاً قادمة ، هى جيوش حسان تُبَّع ، وقدمت الجيوش فجعلت عاليها سافلها وحطمتهم حطماً ، وقد شك القدماء فى القصيدة وأنكروها[3] . وليس فى القصيدة رقم ١٤ ذكر للملوك الأولين ، ولكنها تحمل وصية خلقية بها كثير من الخيوط الإسلامية تجعلها أشبه بموعظة ، إذ لا يعد القريب قريب النسب ، وإنما هو قريب الود والبر ، ويقول إنه ليس عاقًّا ولا ذا نميمة ، وإنه لا ينتظر من الناس جزاءه وإنما ينتظره من ربه . ومثل هذه المعانى تجعلنا نشك فيها كما نشك فى القصيدة رقم ٣٣ وفيها حديث طويل عن فناء الحياة وأن كل شىء فيها إلى زوال ، فالكل هالك كما هلك ساسان

---

(١) انظر الموشح للمرزبانى ص ٤٩ .

(٢) العرم : سيل مشهور .

(٣) الموشح ص ٤٩ .

ملك الفرس وموزق ملك الروم وكسرى شاهنشاه ، وهذا عادياء لم يغنه حصنه بتيماء الذى بناه سليمان ، ويسهب فى وصف الحصن ، وكذلك كان أمر النعمان إذ لم تنفعه أمواله ولا ما كان يُجبى إليه ؛ فلم يَنْجُ من القضاء . ومن هذا النمط نفسه قصيدته رقم ٣٦ التى يقول فيها :

إنما نحن كشىء فاسدٍ فإذا أصلحه اللهُ صَلحْ

ويحدثنا عن هلاك الملوك الأولين مثل عمرو بن هند حديثاً كله عظة واعتبار ، فإن الناس هالكون لا محالة ، وكذلك يصنع فى قصيدته رقم ٣٩ ، ومثلها رقم ٥٣ أما القصيدة رقم ٥٤ فإنه يتحدث فيها عن قصر ريمان قصر الحميريين الذى تداوله الحبش والفرس وما أصابه من البلى والخراب . وقد أنكر القدماء نسبة المقطوعة رقم ٥٦ [١] إليه كما أنكروا أختها رقم ٦٠ وأشرنا إلى ذلك فيما أسلفنا ، وأبيات الأخيرة تختلط بأبيات القصيدة رقم ٧٢ ولذلك كنا نتهمها هى الأخرى ، وأنكر القدماء القصيدة رقم ٦٢ وقالوا إنها تختلط بشعر لنابغة بنى شيبان [٢] . ونراه فى القصيدة رقم ٧٩ يدعو لإياس بن قبيصة أن يجزيه الله جزاء نوح إذ أوحى إليه أن يصنع الفلك ليعصمه من الطوفان . ونلتقى فى نهاية الديوان بالقصيدة رقم ٨٢ وهى تلتقى فى بعض أبياتها بقصيدة رواها المفضل الضبى فى المفضليات لعوف بن الأحوص وهى فيها ذات الرقم ٣٦ ونَسَب الجاحظ بعض أبياتها فى الحيوان إلى مضرِّس [٣] بن زرارة ابن لقيط .

وليست هذه القصائد وحدها فى الديوان هى التى ينبغى أن لا نطمئن إليها ، لما يداخلها من الوعظ والمعانى الإسلامية والمسيحية ، فقد أضاف إليه الرواة الوضاعون غير قليل من القصائد والأشعار ، ويمكننا معرفة وضعها من عرضها على تقاليد الشعر الجاهلى وأسلوب الأعشى نفسه فى مطولاته التى لا يعتورها الشك . وقد تأخذ القصيدة شكلا قصصيًّا غير مألوف لدى الشعراء الجاهليين . وإذا أخذنا نقرأ فى الديوان على هذه الأسس وجدنا غير قليل من القصائد يستوقفنا ، من ذلك القصيدة رقم ١٢ لما يصور فيها من قصة عماه وقائده ، وتدل رحلاته الكثيرة أنه كان ضعيف

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٦ وانظر الديوان ص ٢٠٤ .
(٢) الديوان ص ٢٠٨ .
(٣) الحيوان ٥/٧٨ .

البصر ولم يكن مكفوفاً ، ومثلها القصيدة رقم ٢٠ للين أسلوبها وضعفه ، وهو أشبه بأساليب العباسيين . ونراه فى القصيدة رقم ٢٥ يسوق فى تفصيل قصة السموأل وما كان من إيداع امرئ القيس عنده مائة درع قبل رحيله إلى قيصر وحصار الحارث بن ظالم أو الحارث الغسانى له حتى يأخذها وتحصُّنه منه بحصنه ، ومفاجأته له بأحد أبنائه ، وكان يصطاد ، وقوله له إما أن تسلم الأدراع إلىّ وإما أن أقتل ابنك ، وأبى السموأل أن يسلم الأمانة وفاءً ، وقتل الحارث ابنه تحت عينه . وهى قصة مشكوك فى أصلها ، ويزيدها شكًّا فى قصيدة الأعشى أنه رواها مفصلة بصورة تدل على أنها موضوعة ، وربما وضعها أحد أولاد السموأل فى الإسلام ، ومن أجل ذلك نشك فى القطعة رقم ٢٤ التى تقدَّم لها . وإذا تقدمنا فى الديوان وأعدنا النظر فى القصيدة رقم ٣٩ التى اتهمناها لما فيها من حديث عن هلاك القرى والأمم لاحظنا أنها تتضمن فى نحو عشرين بيتاً قصة غزلية ، يصور لنا فيها كيف بعث لصاحبته رسولا شيطاناً لا يخشى الرقباء ، وكيف تخلص إليها هذا الرسول فنازعها الحديث مخافتاً ، حتى إذا أنكرته ظل يغويها حتى أسلس له قيادها ، فشاورها متى يأتيها الأعشى وكيف يدخل إليها ، ويحدثنا أنه ألم بها وقد غفل الرقباء ، وبات إلى جنبها لا يفصلهما حجاب ، ويمضى فيصف مبيته عندها وصفاً صريحاً . وليس من ريب فى أن هذه القصة تعلن بدورها عن انتحال القصيدة وأنها موضوعة ، ولكن ليس هذا ما نريده ، إنما نريد أن نقول إنه ينبغى أن نشك فيما يجرى مجرى هذه القصيدة المنتحلة وقصتها الغزلية . ومن أجل ذلك كنا نشك فى القصيدة رقم ٥٢ وخاصة أنها غزل ووصف خالص ، وليس لها موضوع من مديح أو فخر أو هجاء كما تعودنا عنده ، ومما يزيدنا شكًّا فيها استرساله فى الخيال مع كل ما يشبِّه صاحبته به ، وخاصة حين شبه مذاق ريقها بطعم الزنجبيل والتفاح ممزوجين بعسل النحل ، فقد أخذ فى وصف من يشتار العسل ويجنيه ، ولم يكن العسل واشتياره مما تُعْرَفُ به قيس بن ثعلبة فى الجاهلية ، إنما كانت تعرف به هذيل . ونقف نفس الموقف من القصيدة رقم ٥٥ لكثرة ما فيها من ألفاظ فارسية ، وكذلك القصيدة رقم ٦٣ لأنها تفتقد الغرض الواضح ، وكأن من نحلوها الأعشى أرادوا بها أن يجروا على لسانه حديثه عن أسفاره البعيدة إلى الغساسنة فى الشام وبنى الجُلَنْدَاء

فى عُمان وغيرهم . وليس فى القصيدتين رقمى ٦٤ و ٦٥ غرض واضح إنما فيهما غزل وخمر أو غزل ووصف ، ولذلك كنا نشك فيهما كما نشك فى القصيدة رقم ٧٦ ؛ لأنها كما يقول رواتها فى مديح قيس بن معد يكرب ، وليس له فيها سوى ثلاثة أبيات فى مطلعها ثم تمضى القصيدة فى الغزل والخمر ، وهى صورة معكوسة للصورة الطبيعية عنده ، إذ يبدأ بالغزل ، ثم يطيل فى المدح . ونحن نشك أيضاً فى القصيدة التى تليها برقم ٧٧ لا لغزلها الماجن فحسب ، بل لأن هذا الغزل يستنفد منها ٢٤ بيتاً ، ويليه وصف للناقة فى ٣ أبيات وفخر لا يتجاوز ٥ أبيات . ومثلها القصيدة رقم ٧٨ إذ نراه يصور فيها لهوه ومجونه فى ٢٢ بيتاً ، ثم يترك لممدوحه ٥أبيات. ومثلهما القصيدة رقم ٨٠ وهى غزل خالص أُودع فى أسلوب ركيك . أما القصيدة رقم ٨١ فاعتذار لعلقمة بن عُلاثة أجراه الوضاعون على لسانه حتى يمحوا هجاءه المقذع فيه ، وما كان ليهجوه فى قصيدتين مطولتين ويدور هجاؤه له فى العرب ثم يعتذر له بستة أبيات .

وإذا أضفنا إلى هذه القصائد التى شككنا فيها مقطوعاته القصيرة التى لا تتجاوز أحياناً بيتاً والتى لا نستطيع أن نقيم عليها مراصد نمتحنها بها لقصرها وهى ذوات الأرقام ٣١ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ استطعنا أن ندرس ما بقى له دراسة نطمئن إليها على الأقل بعض الاطمئنان . ولم يبق له قليل بعد هذا الفحص للديوان ، بل إنه كثير ، إذ يتضمن القصائد ذوات الأرقام : ١ ، ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣ . على أن أعلاها ثقة هى القصائد ذوات الأرقام ١ ، ٦ ، ١١ ، ٢٩ ، ٣٤ ؛ لأن الشارح أسند الأولى والاثنتين الأخيرتين إلى أبى عبيدة كما أسند الثانية والثالثة إلى أبى عمرو بن العلاء ، فتلك القصائد إذن من رواية البصرة التى نرفعها على رواية الكوفة فى التوثيق. على أننا نضرب صفحاً عما ألحقه جاير ناشر الديوان به من أبيات وأشعار وجدها تنسب للأعشى فى بعض الكتب ، إذ بمجرد النظر فيها نعرف خطأ نسبتِها إليه أو على الأقل خطأ نسبة الكثير الأكثر منها .

٤

شعره

يمتاز الأعشى بكثرة قصائده الطويلة ، كما يمتاز بكثرة تصرفه فى فنون الشعر من مديح وهجاء وفخر ووصف وخمر وغزل . أما المديح فقد قالوا إنه أول من سأل بالشعر واستجدى بالقريض[1] واتخذه متّجراً يطوف به البلاد[2] ، وحقاً سبقه غير شاعر إلى المديح كزهير والنابغة ، ولكن أحداً منهم لم يحرص على الاستعطاء وطلب النوال كما حرص الأعشى فقد طاف فى أطراف الجزيرة العربية يمدح السادة والأمراء ، ذاكراً ما يفيضون عليه من الإبل والجياد والإماء وصحاف الفضة وثياب الخز والديباج ، منوهاً فى أثناء ذلك بسؤاله لهم ، غير مُبْقٍ على شىء من نفسه . ومعانى المديح عنده لا تفترق عن المعانى العامة فى مدائح الجاهليين ، فهو ما ينى يمدح بالكرم والشجاعة والوفاء وعَوْن الضعفاء فى القبيلة ، وكثيراً ما يعرض لجيوش ممدوحه إذا كان أميراً أو شيخاً لقبيلته مصوراً ما تنزله على الأعداء من التقتيل والنكال ، وقد يطيل فى وصف ما تشنه من غارات على الأعداء ، وفى تضاعيف ذلك يورد على ممدوحه ثناء مفرطاً .

ومن أهم ما يميز مديحه بالقياس إلى الجاهليين كثرة إسرافه فيه ، ولا نقصد الإسراف فى الأوصاف من حيث هى وإنما نقصد الغلوّ فيها والإفراط ، بحيث يُعَدّ مقدمة لمبالغات العباسيين فى مدائحهم ، وقد يكون ذلك من أثر رغبته الشديدة فى العطاء ، وقد يكون من أثر الحضارات التى ألمّ بها فى طوافه ، وهذا هو معنى ما نقوله من أنه يشبه العباسيين ، فذوقه فى المديح يقترب من ذوقهم وما نعرفه عندهم من غلوّ دفعهم إليه ملق الخلفاء والوزراء بنفس الباعث الذى بعث الأعشى على إفراطه فى مديحه ، ونقصد طلب النوال والعطاء الجزيل . واقرأ له هذه القطعة من مديحه لقيس بن معديكرب إذ يقول :

وسَعَى لِكِنْدةَ سَعْيَ غيرِ مُواكلٍ قَيْسٌ فَضَرَّ عـدوَّها وبنَى لها

(١) ابن سلام ص ٥٤ . (٢) العمدة لابن رشيق (الطبعة الأولى) ١ / ٤٩ .

وأهـان صالحَ مالهِ لفقيرها ... وأَسَى وأصلحَ بينها وسعى لها[١]
فترى له ضُرًّا على أعـدائِه ... وترى لنعمته على مَنْ نالها
أثرًا من الخَيْر المزيِّن أهـلَهُ ... كالغيث صابَ ببلدةٍ فأسالها[٢]
وإذا تجيء كتيبـة ملمومةٌ ... خَرْساءُ يخشى الدَّارِعون نِزالها[٣]
كنتَ المقدَّم غير لابسِ جُنَّةٍ ... بالسيف تضرب مُعْلِماً أبطالها[٤]
وعلمتَ أن النفسَ تَلْقَى حَتْفَها ... ما كان خالقُها المليكُ قضى لها

فإنك تحس فيه روح العصر العباسى ، لا من حيث سهولة اللفظ فحسب ، ولا من حيث المقابلة بين المعانى فحسب ، بل من حيث ما يجرى فى ذلك من أثر رقة الذوق بتأثير الحضارة ، وهى رقة دفعته إلى الغلو فى وصف شجاعة ممدوحه ، فإذا هو لجرأته وبسالته يقتحم ميادين الحرب بدون ترسٍ يحميه ، وبيده سيفه يضرب به فى الأقران تاركاً فيهم آثاره ، وقد آمن بينه وبين نفسه بأن الإنسان لابد أن سيموت ، فلا داعى للخوف ، فلكل امرئٍ أجل مضروب ، لا يتأخر عنه ولا يتقدم . واقرأ له هذه القطعة فى مديحه لهَوْذَةَ بن على سيد بنى حنيفة :

إلى هَوْذَةَ الوهَّابِ أهديتُ مِدْحَتِى ... أُرَجِّى نوالاً فاضلاً من عَطائكا
سمعتُ برَحْبِ الباع والجود والنَّدَى ... فأَدْلَيْتُ دَلْوِى فاستقتْ برِشائكا[٥]
فَتًى يحْمل الأعباءَ لو كان غيرُهُ ... من الناسِ لم يَنْهَضْ بها متماسكا
وأنت الذى عوَّدْتنى أن تَرِيشنى ... وأنت الذى آويْتَنى فى ظِلالكا[٦]
وإنك فيما نابنى بىَ موزَعٌ ... بخيرٍ وإنى مولَعٌ بثَنائكا[٧]

---

(١) أسى : داوى .
(٢) صاب المطر : سقط وانصب .
(٣) ملمومة : مجتمعة . خرساء : لا يسمع لها صوت من كثرة الدروع أى ليس لها قعقعة .
(٤) الجنة : الترس .
(٥) الباع : الكرم وكذلك الندى . الرشاء : حبل الدلو .
(٦) تريشنى : تعيننى وتغنينى .
(٧) هكذا رواية البيت فى المخطوطة اليمنية وهو مضطرب فى الديوان . موزع : مولع .

وجدتَ عليًا بانياً فورِثْتَــهُ   وطَلْقاً وشيبانَ الجوادَ ومالكا[١]
بحورٌ تَفُوتُ الناسَ فى كل لَزْبَةٍ   أبوك وأعمــامٌ همُ هؤلائكا[٢]
وما ذاك إلا أن كفَّيْك بالنَّدَى   تجــودان بالإعطاء قبل سؤالكا
يقولون فى الأكفاء أكبرُ هَمِّه   ألا رُبَّ منهم من يعيش بمالكا[٣]
وجــدتَ انْهدامَ ثَلْمَةٍ فبنيتَها   فأنعمتَ إذ ألحقتَها ببنائكا[٤]
وربَّيْتَ أيتاماً وأنعشْتَ صِبْيَةً   وأدركْتَ شأْوَ السَّبْقِ دون عنائكا[٥]
ولم يَسْعَ فى العلياءِ سَعْيَك ماجدٌ   ولاذو إنًى فى الحىِّ مثلَ إنائكا[٦]

فإنك تحس المبالغة فى المديح واضحة ، وهو يمزجها بالتبذل فى السؤال تبذلا لم يعرف فى عصره ، وكل ذلك واضح فيه رقة اللهجة وأن الأعشى من ذوق يخالف ذوق الجاهليين ، وهو ذوق جاءه من طول اختلاطه بأهل الحضر .

ولا نشك فى أن هذا الذوق هو الذى جعله فى أهاجيه ينحو نحو السخرية من مهجوه فى كثير من شعره ، وكأنما يجد فيه مرارة أشد وألذع من مرارة الهجاء المقذع ، واقرأْ معلقته أو قصيدته السادسة فى الديوان التى وجّه بها إلى يزيد بن مُسْهِر الشيبانى ، وكان قد قتل أحدُ بنى قيس بن ثعلبة رجلا من قومه ، فحمّسهم للثأر لقتيلهم ، فتعرض له الأعشى يهدده ويهجوه مستهلا تهديده وهجاءه بقوله :

أَبْلِغْ يزيدَ بنى شيبانَ مَأْلُكَةً   أبا ثُبَيْتٍ أما تنفكُّ تَأْتَكِلُ[٧]
أَلَستَ منتهياً عن نَحْتِ أَثْلَتِنا   ولستَ ضائرَها ما أَطَّتِ الإبلُ[٨]

---

(١) واضح من الشطر الثانى أن مالكا وشيبان وطلقاً أعمام هوذة .
(٢) لزبة : شدة وأزمة .
(٣) يريد بالشطر الأول أن ممدوحه يتهم بأنه يظلم أكفاءه .
(٤) الثلمة : فرجة المهدوم أو ما فيه من شقوق .
(٥) هكذا رواية البيت فى المخطوطة اليمنية وبه بعض الاضطراب فى الديوان .
(٦) إنى : مقصور إناء .
(٧) مألكة : رسالة . تأتكل : تسعى بالشر أو تغضب وتغلى حتى لكأنك تأكل نفسك .
(٨) الأثلة : شجرة . ونحت أثلته : تنقصه وعابه . أطت : أنت . ويريد بقوله ما أطت الإبل التأبيد .

كناطحٍ صخرةً يومـاً ليُوهِنَها فلم يَضِرْها وأوهى قَرْنَهُ الوَعِلُ[١]

وواضح أنه يوبِّخه ساخراً منه مزدرياً له، إذ يقول: يا أبا ثُبَيْت أما تنفك تسعى بالشر والفساد وتقع فى أعراضنا بالذم والقدح ؟ ألست منتهياً عن ذمنا وتنقصنا ؟ وإنك مهما أتيت من قوارع الطعن لن تضر أصلنا الشامخ مدى الدهر ، وما مثلك إلا كمثل وَعْل ينطح صخرة ليضعفها ، فاستعصت عليه ولم يضرها ولم يوهنها إنما ضر قرنه وأوهنه . وارجع إلى قصيدتيه اللتين يهجو بهما علقمة بن عُلاثة ، فستجده يعمد إلى هذا اللون من السخرية المرة بعلقمة ، إذ يقول له فى أولاهما موازناً بينه وبين خصمه ومنافره عامر بن الطفيل :

علقمَ ما أنت إلى عـامرٍ الناقضِ الأوتارَ والواترِ[٢]
يا عَجبَ الدَّهْرِ متى سُوِّيا كم ضاحكٍ من ذا وكم ساخرِ
ولستَ بالأكثر منهم حَصىً وإنمـا العِزَّة للكاثرِ[٣]
علقمَ لا تَسْفَهْ ولا تجعلَنْ عِرْضك للوارد والصادرِ
ولستَ فى السِّلْم بذى نائلٍ ولستَ فى الهيجاء بالجاسرِ[٤]

وهذا من أشد الهجاء وأمضّه ، ولو أنه شتم وأفحش لعُدَّ سفيهاً، أما أن يهجو على هذا النحو من التعريض فإنه يجعل الظنون تتسع كما يجعل النفوس تتعلق بمعنى كلامه وتُكثر من تأويله . وهو يشير فى الأبيات إلى حكم هرم بن قُطْبة حين تنافر إليه علقمة وعامر ، فسوَّى بينهما فى عبارته المأثورة : « إنكما كرُكْبَتَى البعير الأدْرَم (الفحل) تقعان على الأرض معاً » والأعشى يردّ هذا الحكم وينقضه قائلا: أين الثَّرَى من الثُّرَيَّا . وقد مضى فى القصيدة الثانية يذمه، ولم يكن من أبياتها بيت أشد إيلاماً لعلقمة من قوله :

تبيتون فى المشْتَى مِلاءً بطونُكم وجاراتُكم غَرْثَى يَبِتْن خَمائصا[٥]

(١) الوعل : ضرب من الماعز الجبلى .
(٢) الأوتار : جمع وتر وهو الثأر . ناقضها : الآخذ بثأره . الواتر : الذى يترك ثأره فى الأعداء فلا يستطيعون نقضه .
(٣) الحصى هنا : العدد .
(٤) النائل : العطاء . الجاسر : الجرىء .
(٥) المشتى : زمن الشتاء . غرثى : جائعة. خمائص : ضامرات البطون .

حتى لقد زعم الرواة أنه بكى حين سمعه . وواضح أنه لم يجعله بخيلا فحسب ، بل جعله هو وعشيرته يملأون بطونهم ويُتْخَمون فى ليالى الشتاء الباردة على حين يشتد كلَبُ الجوع والمسغبة على جاراتهم . واختار النساء لينزع من قلوبهم كل عطف ورحمة ، فهم ليسوا بخلاء فحسب ، بل إن قلوبهم لأشد قسوة من الحجارة . واستمعْ إليه يسخر من كسرى قبل وقعة ذى قار :

واقعُدْ عليك التاجُ مُعْتصباً بهِ لا تطلبنَّ سَوامَنا فتُعَبَّدَا[1]

وفى كلمة «اقعد» من الهجاء ما يفوق كل إقذاع ، إذ يستخفّ به و بجيوشه التى يعدّها لقتالهم وقتال شيبان ، وكأنه يلوّح له أنه إن هاجمهم مُنِىَ بهزيمة تطيح بتاجه. ولعلنا الآن نفهم ما كان يقال عن الأعشى من أنه « إذا مدح رفع وإذا هجا وضع » ، فهو إذا مدح غالى فى مدحه حتى رفع ممدوحه على جميع الناس ، وإذا هجا أوجع لا بالشتم والهجاء المقذع وإنما بالتهكم والسخرية والاستهزاء .

والأعشى كثير الفخر فى شعره بقبيلته وعشيرته ، وهو يجمع لهما ضروب المفاخر والمناقب التى كانوا يعتزون بها فى الجاهلية من الجود فى الجدب والشجاعة فى الحرب والرعى فى المكان المخوف وإغاثة المستصرخ . وكثيراً ما يضمن هجاءه لمن يختلف معهم من قبيلته الكبرى بكر وقبيلته الصغرى قيس بن ثعلبة فخراً مدوياً ، كقوله فى معلقته التى أشرنا إليها آنفاً متوعداً يزيد بن مُسْهِر الشيبانى ومفتخراً بشجاعة قبيلته وما أثخنتْ فى القبائل من جراح :

سائلْ بنى أسدٍ عنّا فقد علموا أنْ سوف يأتيك من أنبائنا شَكَلُ[2]
واسألْ قُشَيْرًا وعبد الله كلَّهمُ واسألْ ربيعةَ عنا كيف نَفْتَعِل[3]
إنا نقاتلهم حتى نقتِّلَهم عند اللقاءِ وهم جاروا وهم جَهِلُوا
لئنْ مُنِيتَ بنا عن غِبِّ معركةٍ لم تُلفنا من دِماءِ القوم نَنْتَفِلُ[4]

(١) السوام : الإبل الراعية ويقصد بها الأعشى ديار العرب . تعبد : تصبح كالعبد ، يريد أنه يهزم ويقهر .
(٢) شكل : أزواج مختلفة يريد خبراً من بعد خبر .
(٣) نفتعل هنا : نفعل العظائم .
(٤) غب : عقب ، يقصد أنهم لا يتعبون من لقاء الأعداء ، فإن لقيهم بعد معركة فسيجدهم على أتم استعداد للقاء. ننتفل : ننتفى ، ويروى ننتقل .

قد نَخْضِبُ العَيْرَ من مكنون فائِلِه ... وقد يَشيط على أرماحنا البَطلُ(١)
نحن الفوارسُ يومَ العَيْن ضاحيةً ... جَنْبَىْ فُطَيْمَةَ لا مِيل ولا عُزُلُ(٢)
قالوا الركوبَ فقلنا تلك عادتنا ... أو تنزلون فإنا مَعشَرٌ نُزُلُ(٣)

وقد ذهب بعض القدماء إلى أن البيت الأخير أشجعُ بيتٍ لما صوَّر فيه الأعشى قومه وأنهم يحسنون الطعان فرساناً كما يحسنون الضراب راجلين منوهاً بأن تلك سجية لهم درَج عليها شيوخهم وشبابهم .

ونراه يكثر من وصف الصحراء وناقته ، وهذا طبيعي لكثرة رحلاته وأسفاره ، وهو فى هذا الموضوع يجرى على عادة الجاهليين ، فيصور الأودية وما يجرى فيها من ظلام أو سموم أو مياه أمطار كما يصور طرقها الوعثة ورمالها ومناهلها ووحشها وعزيف الجن ليلا بها ، يقول فى معلقته :

وبلدةٍ مثلِ ظهر التُّرْسِ موحشةٍ ... للجنِّ بالليل فى حافاتها زجَلُ(٤)
لا يَتَنَمَّى لها بالقيْظِ يركبُها ... إلا الذين لهم فيما أتَوْا مَهَلُ(٥)
جاوزْتُها بطَليحٍ جَسْرةٍ سُرُحٍ ... فى مِرْفَقَيْها إذا استعرضتَها فَتَلُ(٦)

وواضح أنه فى هذه الأبيات يفخر بتحمله لمشقات السفر فى مثل هذه الأرض الوعرة الصلبة الموحشة التى لا يسمع فيها صوت سوى صوت الجن والتى لا يركبها فى حمارَّة القيظ واشتعال الرمال إلا من تعود الصبر واحتمال المكاره ، ويقول إنه يقطع مثل هذه الأرض بناقة نِضْوِ أسفار ضامرة موثَّقة الخلق صلبة قوية . وهو

(١) العير : حمار الوحش استعاره للفارس لأن العير يتقدم الأتن: الفائل : القناة الدموية كالشريان . يشيط : يهلك .
(٢) يوم العين : يوم كان بين بنى قيس بن ثعلبة وشيبان بجنب موضع فى البحرين يسمى فطيمة . ميل : جمع أميل وهو الجبان . عزل : جمع أعزل : من لا سلاح له .
(٣) يريد بالنزول التضارب بالسيوف .
(٤) البلدة : القطعة من الأرض . وشبهها بالترس لبيان أنها غليظة وصعبة على من ينفذ فيها . موحشة : كثيرة الوحش . زجل: صوت. حافاتها : نواحيها .
(٥) يتنمى: يرتفع . القيظ : شدة الصيف . مهل : أناة وصبر .
(٦) طليح : مهزولة لكثرة أسفارها . جسرة : ضخمة . سرح : سريعة . فتل : قوة وصلابة .

لا يطيل فى وصف أعضاء الناقة صنيع طرفة ، بل يقتضب الحديث عنها غالباً ، ويكثر حين يلم ببيان سرعتها أن يشبهها بحمار وحش أو ثور أو نعامة ، ويطيل فى وصف ما يلمُّ به منها على عادة الجاهليين. واقرأْ هذه القطعة :

وفلاةٍ كأَنها ظَهْرُ تُرْسٍ ليس إلا الرجيعَ فيها عَلاقُ[1]
قد تجاوزتُها وتَحْتِى مرُوحٌ عنتريسٌ نَعَّابةٌ مِعْنَاقُ[2]
عِرْمِسٌ تَرْجُمُ الإِكامَ بِأَخْفا فٍ صِلابٍ منها الحصى أَفْلاق[3]
وكأَن القُتود والعِجْلَةَ الوَفْ راءَ لمَّا تَواهقَ السُّوَّاق[4]
فوق مُسْتَبقِلٍ أَضرَّ به الصَّيْ فُ وزَرُّ الفُحولِ والتَّنْهاق[5]
أَو فريدٍ طاوٍ تضيَّفَ أَرْطَا ةً عليه من الغصونِ رُوَاق[6]
أَخرجتْه شَهْباءُ مُسْبِلَةُ الوَدْ قِ رجوسٌ قُدَّامها فُرَّاقُ[7]
وتعادَى عنــه النهارُ تُوارِيـ ـه عِراضُ الرِّمال والدَّرْداق[8]
وتَلَتْه غُضْفٌ طوارِدُ كالنَّحْـ ـلِ مغاريثُ همُّهن اللَّحاق[9]

وهو يصور فيها فلاة مقفرة ، لا تجد فيها الإبل ما تأكله سوى الاجترار ، ويقول إنه تجاوزها بناقة نشيطة قوية مسرعة سرعة شديدة ، كانت ترجم المرتفعات بأخفافها الصلبة ، فتشق ما فيها من حصى شقّاً وسرعان ما يشبهها فى سرعتها بحمار وحش ، يقاسى من لظى الصيف وعضّ أمثاله وتنهاقها عليه ،

---

(١) الرجيع: ما تجترّه من طعامها . العلاق : ما تطعمه الإبل من الشجر .

(٢) مروح : نشيطة . عنتريس : صلبة . نعابة: تمد عنقها فى سيرها . معناق : من العنق وهو سير واسع للإبل .

(٣) عرمس : صلبة . الإكام : المرتفعات .

(٤) القتود : الرحل بأدواته . العجلة : المزادة ، وهى قربة الماء . الوفراء : كثيرة المياه . السواق : طويل الساق . تواهق : مد عنقه فى السير. وتلك رواية المخطوطة اليمنية ، والبيت فى الديوان مضطرب .

(٥) مستبقل : حمار وحش يأكل البقل ، زر : طرد وعض .

(٦) فريد : منفرد ، ويقصد ثور الوحش . طاو : جائع . الأرطاة : من أشجار البادية . رواق البيت : شقته التى دون شقته العليا . وتلك رواية المخطوطة اليمنية .

(٧) شبباء : سحابة بيضاء يصدعها سواد . مسبلة : مرسلة . الودق : المطر . رجوس : مرعدة . فراق: جمع فارق وهى السحابة المنفردة .

(٨) تعادى : تباعد . الدرداق : دك متلبد من الرمال .

(٩) الغضف : كلاب الصيد مسترخية الآذان . مغاريث : جائعة .

فهو يسرع لا يلوى . ولا يمضى طويلا مع هذا الحمار ، بل يتركه إلى ثور وحش يشبه به ناقته ، ويصوره طاوياً فى ليلة من ليالى الشتاء القاسية ، وقد بات مستظلا بأغصان أرطاة ، والمطر يسقط من حوله والفزع يأخذه من كل جانب ، ولم تلبث نفسه أن راودته على الخروج من كناسه ، فخرج يتوارى فى عراض الرمال وكثبانها ، ولم تلبث كلاب الصيد أن رأته فأسرعت تحاول اللحاق به ، وأسرع يحاول فَوْتها . والأعشى يشبه ناقته به وهى تترامى فوق الرمال مسرعة كأنما شىء يطلبها .

وتتكرر مثل هذه الصورة لا عند الأعشى وحده ، بل عند جميع شعراء الجاهلية ، إذ يشبهون الناقة بوحش الفلاة ، وخاصة حين يناضل كلاب الصيد ، وإن كنا نلاحظ أن الأعشى لا يطيل فى تصوير ذلك إطالة النابغة أو لبيد أو غيرهما من الجاهليين ، وربما جاءه ذلك من ذوقه المتحضر ، فكان يوجز فى وصف الصحراء والناقة والحيوانات الوحشية ، على حين كان يتسع فى الحديث عن الخمر والغزل .

وحقًّا نجد عند الجاهليين تعرضاً كثيراً للخمر ، ولكنهم عادة يسوقونها مع الحديث عن فتوتهم وكرمهم وبذلهم ، على نحو ما نرى فى معلقة طرفة ، أما عند الأعشى فإننا نجدها فى فاتحة كثير من قصائده تالية لبعض غزله ، ونحس كأنها لذته من الدنيا ، فهو يطيل الحديث عنها وعن تأثيرها فى نفوس شاربيها ، وكأنه يقدسها تقديساً ، فهى وثنه وصنمه ، ولذلك لم يكد يسمع من قريش — كما أسلفنا — أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحرمها حتى كفَّ عن لقائه وانصرف لساعته .

وهو يجيد وصفها إجادة لفتت القدماء إليه ، فقالوا إنه أشعر الجاهليين إذا طرب[1] ، يقصدون إذا شرب الخمر ووصفها ، وهو وصف يفيض بالحيوية ، إذ يجسِّم فيه بيئتها ومجالسها وما يُنْشَرُ فيها من الورود والرياحين وما يقوم فيها من السقاة والمغنين والإماء الخليعات اللائى يَلْبَسْن الشفوف الرقيقة وما يضربُ عليه العازفون من آلات طرب كالصَّنْج والعود ، واستمعْ إليه يقول فى معلقته :

(١) أغانى ٩/١٠٨ .

وقد غدوتُ إلى الحانوت يتبعنى ... شاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ[1]

فى فتيةٍ كسيوف الهند قد علموا ... أن ليس يَدْفَعُ عن ذى الحيلةِ الحِيَل

نازعْتُهم قُضُبَ الرَّيْحان مُتَّكئاً ... وقهوةً مُزَّةً راووقُها خَضِلُ[2]

لا يَسْتفيقون منها وهْى راهنةٌ ... إلا بهاتٍ وإن عَلُّوا وإن نَهِلُوا[3]

يَسْعى بها ذو زُجاجاتٍ لهُ نُطَفٌ ... مُقَلَّصٌ أسفلَ السِّرْبالِ مُعْتَمِلُ[4]

ومستجيبٍ تخالُ الصَّنْجَ يَسْمعُهُ ... إذا تُرَجِّع فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ[5]

والساحِباتِ ذيولَ الخَزِّ آونَةً ... والرَّافلاتِ على أعْجازها العِجَلُ[6]

من كل ذلك يومٌ قد لهوتُ بهِ ... وفى التجارب طولُ اللَّهْوِ والغَزَلُ

وهو يصف فى الأبيات يوماً من أيام لهوه غدا فيه إلى خمار مع رفيق ناشط خفيف الحركة طيب النفس فى فتية كسيوف الهند مضاء وقوة ورونقاً . ويقول إنهم تجاذبوا أغصان الريحان وخمرة مزة ما زالوا يتعاطونها ، فراووقها لا يجف ، وهم لا يسأمون من تعاطيها ولا يفيقون من شربها إلا ليقولوا للساقى : هات ، ويكررون هذه اللفظة مهما شربوا . ويصف الساقى بأنه غلام أو شاب حدث ، كان يعلّق فى أذنه قُرطاً ويلبس قميصاً قصيراً ، وقد طُبع على العمل بجد ونشاط . ويضيف إلى ذلك وصف عود كانت ألحانه تتسق مع صنج كانت تعزف عليه وتغنى قينة فى ثوب واحد رقيق ، ومن ورائها نساء ترفل فى ثياب الخز والحرير ، وقد علت أعجازهن كأنها قرب ممتلئة ، فهى تهتز وترتجّ . ويختم أبياته بأنه تمتّع بكل ذلك

---

(١) غدوت : ذهبت . شاو : يشوى اللحم . ومعنى مشل شلول شلشل شول أنه خفيف الحركة نشيط .

(٢) قضب : جمع قضيب وهو الغصن ، القهوة : الخمر . الراووق : الوعاء الذى تروق فيه الخمر . خضل : ندى ، كنى بذلك عن اتصال شربهم .

(٣) علوا : من العلل وهو الشرب بعد الشرب تباعاً ، نهلوا : من النهل ، وهو أول الشرب . إلا بهات : إلا بمقدار قولهم هات .

(٤) ذو زجاجات : يريد الساقى . نطف : جمع نطفة وهى القرط به لؤلؤة صافية . مقلص أسفل السربال : قصير القميص . معتمل : مطبوع على العمل والنشاط .

(٥) المستجيب : العود ذو الأوتار لأنه يجيب صاحبه كما يجيب الصنج وهو الآخر من آلات الطرب . وجعل الصنج يسمعه كناية بذلك عن اتساق ألحانهما . القينة : الأمة المغنية . الفضل : اللابسة ثوباً واحداً .

(٦) العجل : جمع عجلة بكسر العين وسكون الجيم وهى قربة الماء .

ولَّهَا به وجرّبه مراراً وتكراراً .

والأعشى لا يصف مجالس الخمر فحسب ، بل يصف وصفاً دقيقاً أوانيها وألوانها وما تفعله بعقول شاربيها وما تُحدِث فى قلوبهم من نشوة ، مما يدل على أنه كان مشغوفاً بها مفتوناً ، بل سكّيراً مغرقاً فى السكر ، وهو فى ذلك يقترب من ذوق جماعة المجّان فى العصر العباسى أمثال أبى نواس ، وفى الوقت نفسه يفترق من ذوق معاصريه الذين لم يكونوا يسرفون على أنفسهم إسرافه فى اللهو والمجون . ولا نشك فى أن هذا جاءه من أثر الحضارات التى ألمّ بها فى الحيرة وغير الحيرة ، بحيث تحوّل مدمناً لها ، يلزم حوانيتها ، فإن ولّى وجهه نحو منازل قومه حمل منها ما يكفيه هو ورفاقه هناك ، فينهلون ويعلّون ولا يفيقون ، وهو فى أثناء ذلك ينشدهم ما ينظمه فيها ، وهم يصفقون استحساناً . ولم يكن يحسن وصفها فحسب ، بل كان يُضْفى عليه حيوية بما يمزجه به من قصص على شاكلة قوله :

أتانى يُؤَامِرُنى فى الشَّمو ل ليلا فقلتُ له : غَادِها[1]

أَرِحْنا نباكِرُ جِدَّ الصَّبو حِ قبل النفوس وحُسَّادها[2]

فَقُمْنَا ولما يَصِحْ دِيكُنا إلى جَوْنَةٍ عند حدّادها[3]

تنخَّلها من بِكارِ القِطـافِ أُزَيْرِقُ آمِنُ إكْسادها[4]

فقلتُ له : هٰذه هاتِها بـأَدْماءَ فى حَبْل مُقْتَادِها[5]

فقال : تزيدوننى تسعةً وما ذاك عَدْلاً لأَندادها[6]

فقلتُ لِمنْصَفِنا : أَعْطِهِ فلما رأى حَضْرَ شُهَّادهـا[7]

أَضاءَ مِظَلَّتَه بالسِّرا جِ والليلُ غامِرُ جُدَّادِها[8]

(١) يؤامرنى : يشاورنى . الشمول : الخمر . غادها : انطلق بنا إليها .
(٢) جد : نشاط . الصبوح : خمرة الصباح .
(٣) جونة : جرة وخابية . حدادها : خمارها .
(٤) تنخلها : تخيرها . بكار القطاف : أول ما يقطف . أزيرق : أزرق العينين . آمن إكسادها : آمن من كسادها لا يخاف .
(٥) أدماء : ناقة بيضاء . مقتادها : غلامها الذى يرعاها .
(٦) أندادها : أمثالها .
(٧) منصف : خادم . حضر : حضور . شهادها هنا : الدراهم .
(٨) مظلته : حانوته أو خباءه . الجداد : الأهداب والأستار .

دَراهمُنا كُلُّها جَيِّـدٌ فلا تحبِسنَّا بِتَنْقَادِهـا[1]
فقام فصبَّ لنا قَهْوَةً تُسَكننا بعد إرْعادها[2]
كُمَيْتاً تكشَّفُ عن حُمْرةٍ إذا صرَّحتْ بعد إزْبادها[3]
كحَوْصَلة الرَّأْلِ فى جَرْيها إذا جُلِيَتْ بعد إقْعادها[4]
وجال علينـا بإبريقهِ مخضَّبُ كفٍّ بِفرْصادها[5]
فباتتْ رِكابٌ بـأكْوارِها لدينـا وخيلٌ بِـألْبادها[6]
ورُحْنـا تنعمنا نشوةٌ تجورُ بنا بعد إقْصادِها[7]

ولا تختلف هذه الأبيات المنتزعة من القصيدة الثامنة فى الديوان عن خمريات أبى نواس وأضرابه فى شىء ، لولا ذكره للأكوار والألباد فى نهايتها ، ولوحذفنا بيتهما لأصبحنا إزاء خمرية عباسية تعتمد على القصص والإطراف به . وهو فى أولها يذكر أن فتى طرقه قبل أن يسفر الصباح يدعوه أن يذهبا معاً لتناول الخمر . وذهبا فى هزيع الليل الأخير –قبل أن تصيح الديكة وقبل أن يسبقهما أى كاشح حسود– إلى حانوت خمار أعجمى ، كنى عنه بزرقة العين ، وهو خمار حاذق لصنعته ، استخلص خمره من بكار القطاف ، وهى خمر معتقة ومثلها لا يكسد ولا يبور . وطلبا إليه أن يسقيهما بناقة قاداها إليه ، وهى واقفة ببابه مزمومة بحبل غلامها ، فلم تكفه وطلب فوقها تسعة دراهم ، مشيداً بخمره وأن هذا الثمن ليسْ كفؤاً لها ، ويقول الأعشى إنه قال لصاحبه : اعطه ما يريد . ويضىء الخمار خباءه أو حانوته ، ويعدّ الدراهم ويتبينها خشية زيفها ، حتى إذا اطمأن لها وللأعشى ورفيقه أو رفاقه قام ، فناولهم خمراً تمشت فى أجسادهم ، فسكنوا إليها ، وهى خمر حمراء

(١) تنقادها : نقدها وعدها حتى يتبين زائفها من صحيحها .
(٢) تسكننا : نسكن إليها .
(٣) كميتاً : حمراء . صرحت : ذهب زبدها .
(٤) الرأل : فرخ النعام . شبه الخمر بحوصلته فى الحمرة . جليت : أخرجت ، مأخوذ من جلوة العروس. القاعدة ، إذا قعدت عن الطلب . وانظر الحيوان ١٤/٤ .
(٥) الفرصاد : التوت الأحمر .
(٦) الأكوار : الرحال . الألباد : جمع لبد وهو قطعة الصوف توضع تحت السرج
(٧) إقصاد : قصد واعتدال .

فاقعة كأنها الفرصاد أو التوت الأحمر ، وما يزال صاحبها يسقيهم ، وهم بها مشغوفون ، حتى انبثقت أضواء الصباح ، فنهضوا بركابهم وخيلهم ، تستخفهم النشوة استخفافاً خرجوا به عن أطوارهم وما تعودوه فى صحوهم من قصد واعتدال .

وأنت تراه قد وصف الخمر ودنّها ولونها وخمّارها وحانوتها وتعرّض لصياح الديكة فى السحر ومساومة صاحبها فى ثمنها وأثرها فى النفس وما تصيب به شاربها من انتشاء يتمشى فى المفاصل . وهذه المعانى جميعها تدور فيها وفى أفلاكها خمريات العباسيين . واستمعْ إليه يقول :

وأَدْكنَ عاتقٍ جَحْلٍ سِبَحْلٍ ... صَبحْتُ بِراحِهِ شَرْباً كِرَاماَ(١)
من اللاتى حُمِلْن على الرَّوايا ... كريحِ المِسْكِ تَسْتَلُّ الزُّكاما(٢)
مُشَعْشَعَةً كأَنَّ على قَرَاها ... إذا ما صَرَّحتْ قِطَعاً سَهاما(٣)
تخيَّرها أخو عاناتَ شهرًا ... ورَجَّى أَوْلَها عاماً فعاما(٤)
يؤمِّل أن تكون له ثراءً ... فأَغلق دونها وغَلا سِواما(٥)
فأَعطينا الوفاءَ بهـا وكُنَّا ... نُهين لمثلها فينا السَّواما(٦)
كأَنَّ شُعاع قَرْن الشمس فيها ... إذا ما فُتَّ عنْ فيها الختاما(٧)

وواضح أنه يتحدث عن دن من دنان الخمر أسود عتيق ، صَبَحَ به رفاقه ، ويقول إنه من نادر الدنان التى تجتلب من البلاد البعيدة والتى تنفذ رائحة خمرها بطيبها إلى الأنف ، فتستلُّ منه الزكام . ويصف هذه الخمر فيقول إنها مروّقة ، صافية كأنها بياض الدّرّ أو سرابه اللامع ، وقد انتقاها صاحبها فى «عانات» ، وظل

---

(١) أدكن : هو الدن لأنه يطلى بالقطران . عاتق : قديم . الجحل : السقاء الكبير أو القربة الكبيرة . سبحل : ضخم . الشرب : جماعة الشاربين . صبحت : ناولت ؛ وهو خمر الصباح .

(٢) الروايا : جمع راوية وهو البعير .

(٣) مشعشعة : مروقة . قراها : ظهرها . صرحت : صفت . السهام : وهج الصيف ومايكون معه من البياض .

(٤) عانات : بلد بالشام . أولها : ما تؤول إليه من ثمن غال .

(٥) السوام : بكسر السين المساومة فى البيع والمغالاة .

(٦) السوام : بفتح السين الإبل الراعية .

(٧) قرن الشمس : أول ما يبدو منها فى الصباح . الختام : السداد .

يعلق عليها الآمال عاماً بعد عام ، مغالياً فى ثمنها ، حتى اشتريناها منه ، ويصورها وهى تستمط من دَنِّها بشعاع الشمس الوهاج ، وهى من الصور التى أكثر العباسيون من تداولها ، كما أكثروا من الحديث عن رائحتها ووصف دِنانها ، ومن قوله فى كأس من كئوسها :

وكأْسٍ كَعيْنِ الديكِ باكرتُ حَدَّها   بفتيانِ صِدْقٍ والنواقيسُ تضربُ(١)
سُلاف كأَنَّ الزعفران وعَنْدَماً   يصفَّق فى ناجودها ثم تُقْطَبُ(٢)

وهو يشبهها بعين الديك فى صفائها ، ويقول إنه باكرها أو باكر سورتها برفاق مخلصين ، يشربونها معه فى الأديرة على قرع النواقيس ، ويحدثنا عن رائحتها وأثرها فى نفسه ، حتى ليتصورها زعفراناً أحمر خُلط بصبغ العندم ، وقد سطعت منه رائحة زكية . وعلى هذا النحو ما يزال يصف الخمر وصف مفتون بها ، معلناً أنه لا يستطيع عنها انصرافاً ، فهى كل لذته ومتاعه ، يقول :

وكأْسٍ شربتُ على لذَّةٍ   وأخرى تداويتُ منها بها
لكى يعلم الناسُ أنى امرؤٌ   أتيتُ المعيشةَ من بابها

وما بنى يتحدث عن مجالسها وما ينثر فيها من ورود وما يكون فيها من قيان وآلات طرب ، بنفس الصورة التى تلقانا عند أصحاب الخمر والمجون فى العصر العباسى . ونحن إنما سقنا ما وثّقناه من أشعاره ، ومن يرجع إلى ديوانه وما رفضناه من قصائده يستطيع أن يلاحظ عبث الرواة بشعره ، فقد أجروا على لسانه خمرية تزخر بالألفاظ الفارسية ، وكأنه فارسى أباً وأمّاً ممن أتقنوا الشعر العربى فى العصر العباسى وأتقنوا فن الخمرية بنوع خاص ، وهل تفترق قصيدته رقم ٥٥ من قصائد أبى نواس وأضرابه فى شىء ؟ إنها تكتظ بأسماء الرياحين والأزهار وآلات الطرب الفارسية ، ولا يبخل عليه واضعها بذكره لنيل مصر فى تضاعيفها وإجرائه على لسان الأعشى بعض ما كان يجرى على لسان أبى نواس ونظرائه من أن صاحبها مجوسى يصلى عليها

(١) باكر : شربها فى الصباح الباكر . حدها : سورتها وحدتها .
(٢) السلاف : أجود الخمر . العندم : شجر عروقه حمراء يصبغ به . يصفق : يروق . ناجودها : جرتها . تقطب : تمزج .

ويزمزم . فماذا بقى لمجان الفرس فى العصر العباسى . وقُلْ ذلك نفسه فى قصيدته رقم ٣٦ وقد رفضناها لما فيها من حديث عن هلاك الملوك الأولين ، وهى ترفض أيضاً لما فيها من صور خمرية تنبو على ذوق الجاهليين ، إذ يوصَفُ زقُّها الأسود وقد طُلى بالقار وطُرح على الثرى بحبشى نام وانبطح ، كما يوصَف السكارى وقد تمددوا على الأرض وخذلتهم أرجلهم من غير كسَحٍ فلا يستطيعون حراكاً بالحبال الممدودة لصيد بعض الطير .

وإذا تركنا خمره إلى غزله لاحظنا أنه لا يقف طويلا عند الأطلال صنيع غيره من الجاهليين ، بل يأخذ فى وصف صاحبته ووصف عواطفه نحوها ، وقد يعمد إلى نفس الصورة القصصية المبثوثة فى معلقة امرئ القيس ، فيتحدث عن مغامراته ووصوله إلى محبوباته من المتزوجات على شاكلة قوله :

فظلِلْتُ أرعاها وظلَّ يَحُوطُها ... حتى دنوتُ إذا الظلامُ دَنا لَهَا

فرميتُ غفلةَ عَيْنِهِ عن شاتِه ... فأَصبتُ حَبَّةَ قلبِه وطِحالَها[1]

حَفِظَ النهارَ وبات عنها غافلاً ... فَخلتْ لصاحبِ لَذَّة وخلا لها

فهو يخالس الزوج ويخاتله ، حتى يظفر ببغيته . وطبيعى أن يكون غزله ماديًّا صريحاً لما رأينا من لهوه وخمره ، غير أننا نلاحظ عنده رقة فى الغزل وشدة فى الوله والتعلق بالمحبوبة ، حتى إن روحه لتكاد تسقط من بين جنبيه جزعاً وصبابة ، وخاصة حين الوداع . واستمعْ إليه يقول فى فاتحة معلقته :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إن الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ ... وهل تطيقُ وداعاً أيها الرَّجُلُ

فهو يأمر قلبه أن يودعها قبل الرحيل ، وسرعان ما يرجع إلى نفسه ينكر ما ظنه فيها من الصبر على الوداع . وهى صبابة لا نعرفها عند الجاهليين ، إنما نعرفها عند الأعشى صاحب الذوق الرقيق الذى أثرت فيه الحضارة ، وحوّلته دقيقَ الحس دقة شديدة فإذا هو يتذلل فى حبه ويخضع ، وامْضِ معه فى المعلقة فستجده يشبِّب بصاحبته منحرفاً عن طريقة الجاهليين فى بكاء آثار الديار والأطلال ، فهى موضوع حبه وغزله ، ولا داعى لأن يذهب بعيداً مع الذكريات ، وإذن

(١) الشاة هنا : كناية عن المرأة .

فليأخذ فى وصفها مفتنًّا فى ذلك افتناناً ، فتارة يصف بَشَرتها وشعرها وعوارضها وتارة يصف مشيتها الوانية وحَلْيها ، وتارة يصف تعلق الناس بطلعتها الفاتنة وما تغرق فيه من ترف ونعيم وعطور ، ولا يلبث أن يُورد علينا هذا البيت الغريب :

عُلِّقْتُها عرَضاً وعُلِّقَتْ رجلا غيرى وعُلِّق أخرى غيرَها الرَّجُلُ

وهو يصور فيه شقاءه بحبها ، فهو يحبها ، وهى تعرض عنه ، وتحب رجلا آخر ، والرجل يعرض عنها ويحب فتاة أو امرأة ثانية . وسرعان ما يعود ، فيتذكر كيف كانت تشفق عليه وعلى نفسها حين زارها ذات مرة ، فقال :

قالتْ هُرَيْرَةُ لما جئتُ زائرَها وَيْلِي عليك ووَيْلِي منك يا رَجُلُ

فقد بالغ فى وصف ارتياعها وخوفها على نفسها وعليه ، حتى إنها لتتفجع وتتوجع إشفاقاً وضعفاً . ولعل فى هذا كله ما يوضح غزل الأعشى وأنه يمتاز من ناحية بأنه حسى مادى ومن ناحية أخرى برقته المفرطة وتصويره لعواطف المحبين وأحاسيسهم التى يبوحون بها ولا يستطيعون كَظْمها ولا كتمها ، بل يندفعون فى تصويرها معبرين عن ولههم وعشقهم .

والحق أن الأعشى فى شعره جميعه يعد تمهيداً للشعر الحضرى الذى ظهر من بعده ، سواء فى غزله وخمره أو فى هجائه ومديحه ، فهو فى هذه الموضوعات جميعاً يفصح عن ذوق متحضر ، سواء فى خطاب الأمراء والأشراف والخضوع لهم أو فى خطاب النساء والتذلل لهن أو فى اللعب بمهجوِّيه والاستهزاء بهم والاستخفاف ، أو فى وصف الخمر ومجالسها ودنانها وكئوسها .

ولعلنا بعد ذلك لا نعجب إذا رأيناه يشبه العباسيين فى مبالغاتهم ، فقد كان يسرف على نفسه مثلهم فى تصور ممدوحيه ، فإذا هو يقول فى هَوْذة بن على الحنفى :

فَتًى لو يُبارى الشمسَ ألقتْ قناعَها أو القمرَ السَّارِى لأَلْقَى المقالِدَا[1]

فهو لو يبارى الشمس لألقت قناعها خجلا ولو بارى القمر لذلّ له وانقاد صَغاراً . وهى مبالغة مفرطة ، ومثلها قوله متغزلا :

---

(١) ألقى المقالد : ذل وانقاد ، وفى رواية ينادى بدلا من يبارى بمعنى يجالس

لو أسندتْ مَيْتاً إلى نَحْرِها عاشَ ولم يُنْقَلْ إلى قابرِ
حتى يقولَ الناسُ مما رأوا يا عجباً للميِّتِ الناشرِ[١]

فلو ضمت ميتاً إلى نحرها لدبت فيه الحياة من جديد ، وعجب الناس لما يرون من هذا الميت المبعوث . ويبالغ الأعشى أو قل يزيد مبالغته إفراطاً ، فيقول إن هذا الميت حين يبعث إلى دنياه يخلد فيها ولا ينقل إلى مقبرة من المقابر .

ولا يلاحظ عنده إطرافه بمثل هذه المبالغات فحسب ، بل يلاحظ أيضاً تعمقه فى صنع الأخيلة والصور ، فإذا هو يقع منها على مبتكرات كثيرة ، نلاحظها لا فى موضوعه الجديد فحسب ، ونقصد الخمر ، وإنما فى أقدم الموضوعات وأكثرها دخولا فى البداوة ، ونقصد وصف الناقة ، إذ يقول فى بعض شعره إنها تجترع الآكام اجتراعاً ، لما تنطوى منها ، يقول :

إذا ما الآثماتُ وَنَيْنَ حطَّتْ على العِلاَّتِ تَجْتَرِعُ الإكاما[٢]

ويقول مصوراً سرعة ناقته فى الهاجرة :

بِجُلالةٍ سُرُحٍ كأنَّ بِدَفِّها هِرًّا إذا انتعلَ المَطِيُّ ظِلالَها[٣]

فهى تجرى مذعورة كأن هِرًّا يخدشها ، وليس ذلك الذى يلفتنا عنده ، إنما يلفتنا أنه عبر عن تقلص الظلال فى الهاجرة بأنه لم يبق لناقته إلا ظل أخفافها ، وهى تنتعله فى خُطاها. وتكثر عنده الصور المخترعة فى الخمر ، وهى مبثوثة فيما أنشدناه من شعره .

ومن أهم ما يلاحظ عنده سهولة لفظه بالقياس إلى معاصريه وسابقيه من قبيلته أمثال طرفة ، وما نشك فى أن هذا يرجع إلى أنه تأثر بالحضارة ، فرقَّت معانيه ، ورقت ألفاظه رقة لم تعرف لشاعر جاهلى ، وليس لفظه وحده الذى رَقَّ ، بل إن نفسه رقَّت هى الأخرى ولانت ، فإذا هو يأتى بخمرياته وغزلياته السابقة . وحقًّا تأثر النابغة مثله بالحضارة ، ولكنا نحس عنده أنه يُبْقِى على كثير من بداوته ، ولذلك

---

(١) الناشر : المنشور أو المبعوث .
(٢) الآثمات هنا : الوانيات . العلات : الحالات المختلفة . حطت : أسرعت . الإكام : المرتفعات .
(٣) جلالة : ناقة ضخمة . سرح : سهلة . الدف : الجانب .

لم يرقّ غزله ولا خاض فى الخمر ، أما الأعشى فأقبل على اللهو والطرب والعكوف على الخمر والاستماع إلى القيان . فكان طبيعيًّا أن يسهل الشعر عنده بأكثر مما يسهل عند النابغة ، وأن تظهر فيه رقة الحضارة ونعومتها .

ولا يظهر تأثير الحضارة فى سهولة ألفاظه فحسب ، بل يظهر أيضاً فى خفة أوزانه وجمال موسيقاها ، وكأنما أثر فيه كثرة استماعه للمغنيات والغناء ، فإذا هو يُحيل شعره ألحاناً وأنغاماً خالصة . وهو كثير التنويع فى أوزانه يستخدم منها التام والمجزوء ، ويُحسن هذا الاستخدام إلى أقصى الحدود ، إذ كان يقتدر على الإتيان بالألفاظ العذبة والكلمات الرشيقة والقوافى المتمكنة .

على أنه ينبغى أن نلاحظ شيئين ، هما كثرة ما نُحِلَ عليه ، وقد أدّى ذلك إلى دخول ألفاظ فارسية فى بعض قصائده ، حَمل عليه من أجلها المرزبانى فى كتاب الموشح ، والذى لا شك فيه أن هذا من صُنْع المنتحلين ، ولا يصح أن نحمل على الأعشى بسببه بل ننحّى عنه هذا الشعر على نحو ما نحينا عنه القصيدة رقم ٥٥ . أما الشىء الثانى فهو أن الأسلوب عند الأعشى ينفك قليلا عن صورة الأسلوب الجاهلى ، ولذلك مظهر واضح هو أننا نفتقد عنده الأبيات المفردة التى تدور فى الحكم والأمثال ، وكأنما لم تكن لديه مقدرة زهير والنابغة فى التركيز وحشد المعانى فى الألفاظ القليلة . وربما كان هذا هو سبب كثرة التضمين فى أشعاره كقوله فى مطلع قصيدته الأولى فى ديوانه :

ما بكاءُ الكبيرِ بالأطلالِ ... وسؤالى فهل تردُّ سؤالى
دِمْنَةٌ قَفْرَةٌ تَعَاورها الصَّيْـ ... ـفُ بريحين من صَباً وشَمال[1]

فقد جاء بفاعل تردّ فى أول البيت الثانى ، ومن ذلك قوله فى قصيدته التى يفخر فيها بتغلُّب شيبان على الفرس فى يوم ذى قار :

ولله عَيْنا مَنْ رأى من عِصابة ... أشدّ على أيدى السُّعاة من التى[2]

---

(١) الدمنة : آثار الدار . الصبا : ريح جنوبية لينة . تعاورها : تتداولها .

(٢) السعاة : الذين يسعون فى الحرب ويهيجونها .

أَتَتْنَا من البَطْحاءِ يَبْرُقُ بَيْضُها وقد رُفعتْ راياتُها فاستقلَّتِ[1]

وهو يوازن فى البيتين بين بنى شيبان وجيوش الفرس ، فيقول ألا سلمت عينا من رأى عصابة بنى شيبان وإنها لأشد على من يثيرون الحروب من تلك التى أتتنا من البطحاء تبرق خوذاتها وتخفق راياتها . وواضح أنه فصل بين الصلة والموصول فى البيتين ، وكأنه لم يعترف بأن للبيت الأول نهاية يقف عندها . وهذا التضمين فى شعره أكثر من أن نمثل له ، فليرجع إليه من أراد ، والمهم أنه يدل على انفكاك التعبير عنده ، فهو لا يتمه فى البيت ، بل يتمه فى بيت ثان أو أبيات ، ولعل ذلك هو سبب كثرة صيغة التفضيل التى اشتهر بها فى شعره ، وذلك أنه حين يبتغى تفضيل شىء على شىء يجعل المفضل عليه مبتدأ منفيًّا بما ، ثم يسترسل فى وصفه ، حتى إذا استوفى ما أراد من هذا الوصف جاء بخبر المبتدأ ، على شاكلة قوله فى المعلقة يصف صاحبته وما ينتشر من طيبها :

ماروضةٌ من رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خَضْراءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ[2]
يُضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ مؤزَّرٌ بِعَميمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ[3]
يوماً بأَطيبَ منها نَشْرَ رائحةٍ ولا بأَحْسَنَ منها إذْ دَنَا الأُصُلُ[4]

فقد بدأ بالمبتدأ وهو الروضة ، ووصفها فى بيتين مادحاً جمالها وما تمدها به الأمطار وكيف تضاحك الشمسَ أزهارُها ونباتاتها ، ثم قال إن هذه الروضة على حسنها وشذاها العطر ليست أطيب من صاحبته شذى ولا أبهى منظراً .

وواضح من كل ماقدمنا أن الأعشى يُعَدُّ حلقة مهمة من حلقات الشعر الجاهلى ، وهى حلقة تضيف جديداً واضحًا إلى هذا الشعر سواء فى موضوعاته أو فى معانيه أو فى أحاسيسه أو فى سهولة ألفاظه أو فى خفة أوزانه وجمال أنغامه وألحانه .

---

(١) البطحاء : موضع بقرب ذى قار . البيض : الخوذ . استقلت : ارتفعت وعلت .
(٢) الحزن : ما غلظ من الأرض وارتفع . وعندهم رياض الحزن أجود وأنضر من رياض المنخفضات . مسبل هطل : كثير الأمطار .
(٣) كوكب : أراد به ما طال من النبات . شرق : ريان من الماء . وأراد بالمضاحكة تفتح الأزهار . مؤزر : لابس إزارا . عميم النبت : ما اجتمع منه وتكاثر . مكتهل : تام .
(٤) الأصل : جمع أصيل وهو الوقت قبل الغروب .